للترقية والتهذيب في الهيئة الاجتماعيّة وقابلٌ لان يبقى سائغاً كما هو بين الامم المتوحشة . وان الجمال الحقيقي لا يكون الاّ قيّماً مرّت عليهِ العصور ولم يرفضهُ رأي الجمهور فاننا كثيرًا ما نرى قومًا يستحسنون اقوال شاعرٍ عرفوهُ او منظرًا التوهُ ويظهر خلاف ذلك عند من يجيء بعدهم اما ما كان جميلاً حقيقة فلا بدّ ان تنجذب بهِ الابصار وتوجه اليهِ الافكار ويعطى حقهُ من الاعتبار والاكرام مهما اختلفت عليهِ الاحوال وتقلّبت الايام . هذه الالياذ اشعار هومرس الشاعر اليوناني الذي عاش منذ اكثر من الفين وستمئة سنة وهذه اشعار فرجيل الشاعر الروماني الذي عاش منذ الف وثمانمئة سنة لا تزال عرائس الشعر لم تخلُ لها الايام جمالاً ولم تخدش لمرآتها صقالاً ولا يزال الناس على اختلاف طبقاتهم ينظرون اليها كدستور الشعر وآية الكمال فالشاعر الحقيقي والمصور العظيم من لا تغيّر اعتبارهُ الايام ولا تزدري اعمالهُ بنادى الاعوام

وهذا جمال الطبيعة الباهر جمال ازهارها وانهارها وجمال جبالها وآكامها وسمائها ونمائها والمناظر التي تبدو فيها من قوس قزح وغيوم ونجوم وغيرها ما زالت منذ البدء ولن تزال الى الابد غاية الجمال عند كل امّة تحت السماء

مدارك الحواس

ذكر الشهير شاركو الذي ذاع صيتهُ في الآفاق بما اكتشفهُ في الهبنوتزم او التنويم المغنطيسي ان رجلاً واسع الاطلاع عارفًا بلغات كثيرة كان قويّ الذاكرة يستحضر الصفحة والصفحتين من الكتاب بعين عقلهِ فيقرأها كأنهُ يراها بعينهِ الباصرة ولكنهُ لم يكن يميز بين طيب الالحان ورديها ولا يرتاح الى الغناء بوجه من الوجوه ثم انتابتهُ نوائب الايام فساءت حالهُ وكثر بلبالهُ فلم يعد قادرًا على استحضار الصور وتذكّر المرئيات ثم صار ينسى ما يراهُ بعينيهِ حتّى انهُ لم يعد يعرف صورتهُ اذا رأى نفسهُ في مرآة وغابت عنهُ صور الحروف الهجائيّة فنسي القراءة واستخدم مَن يقرأ لهُ لكي لا تضيع معارفهُ وحينئذٍ اضطرّ ان يمرّن قوة السمع فقويت فيهِ ونابت مناب الذاكرة وبقي ادراكهُ على حالهِ

وقد يُظن لاول وهلة ان حالة هذا الرجل من النوادر المرَضيّة وان الناس اجمع متساوون دائمًا في مداركهم فالذي يراهُ زيد يراهُ عمرو والذي يسمعهُ خالد يسمعهُ بكر وان هذا شأنهم في الذوق والشم واللمس اي ان المؤثرات الواحدة تؤثر دائمًا في جميع الناس على حدٍّ

سوى . والحقيقة ان الناس قد يختلفون اختلافًا عظيمًا في حواسهم والى ذلك مرجع كثير مما نراهُ بينهم من الاختلاف في المذاهب والآراء والاحكام

حدث بالامس ان رجلين من المشهورين بالصدق والاخلاص تكلما في امر رجل ثالث ولم يذكر احد منهما اسمهُ . وسُئل المتكلم عما اذا كان قد ذكر اسم الرجل فقال كلاَّ وسئل المتكلم معهُ فقال بل ذُكر اسمهُ امامي . والرجلان صادقان والارجح ان الاول لم يذكر الاسم ولكنَّ الثاني فهمهُ من القرينة فحكم في نفسهِ انهُ سمعهُ باذنيهِ وهو لم يسمعهُ الاَّ باذن عقلهِ

وروى احد الكتَّاب ان فتاةً استشارت قسيسًا في اقترانها بفتًى طلب الاقتران بها فقال لها القسيس اصغي الى جرس الكنيسة فاذا سمعتهِ يقول وهو يدق « طيب طيب » فخذي الفتى واذا سمعتهِ يقول « كلاَّ كلاَّ » فلا تأخذيهِ . فهذا القسيس قد ارشد الفتاة الى سماع صوت قلبها وهو لا يدري . وكم من مرة نرى الاشجار والاظلال في ظلام الليل فنظنها اشخاصًا وكم من رجل يرى الغيوم في عنان السماء فيظنها خيولاً ومركبات . وقد رأينا كثيرين من طائفة النصيرية في جبالهم وكلٌّ منهم ينظر الى القمر وهو بدر فيرى فيهِ صورة الامام علي وكانوا يعجبون من عدم رؤيتنا اياها وينسبون ذلك الى عدم ايماننا

وذكر الكاتب مستهل الجرماني ان واحدًا من الظرفاء قال لجماعة اني اطرح عليكم سؤالاً وانتبكم بحرفة كلٍّ منكم من جوابهِ على سؤالي فقالوا لهُ سل ما بدا لك فقال « اي شيء يقتل اولادهُ » فقال الاول « القوة الحيوية » فقال لهُ انت عالم طبيعي وقال الثاني « الحرب » فقال لهُ انت جندي وقال الثالث « الدبة » فقال لهُ انت فلاَّح وكان كما قال . وكان الفاضل سمعان كلهون رئيس مدرسة عبيه الاميركية يقول لنا قصوا عليَّ احلامكم فاقص عليكم سيرة حياتكم . ويظهر مما تقدَّم ان مدارك الحواس تختلف اختلافًا عظيمًا وهاك تفصيل ذلك

لا يخفى ان اللغة شاهد عدل على طبائع الناس وتدبُّرهم للامور ففي اللغة العربية وفي كثير من اللغات ترى كلمة رأى ونظر والراي والنظر وكلها تستعمل بمعنى حسيّ وبمعنى عقليّ دلالة على ان النظر والرؤية لا يقتصران على العين الباصرة بل يتناولان ادراك البصيرة ايضًا . ولا يخفى ايضًا ان ادراك البصيرة للمرئيات يختلف اختلافًا عظيمًا باختلاف الاشخاص وقد بحث المحقق فرنسيس غلتون في هذا الموضوع بحثًا طويلاً وطرح مسائل كثيرة على كثيرين واستقرى اجوبتهم عليها فظهر لهُ انهم يختلفون اختلافًا عظيمًا بين مَن انا رأى شيئًا ثم غاب

عن بصره لم يعد يذكر له صورة ومَن اذا رأى شيئًا وغاب عن بصره بقيت صورته امام عينيه بالوانه الطبيعية حتّى كانها صورة فوتوغرافية ملوّنة. ووجد بالاستقراء ايضًا ان الشكل ارسخ في الذهن من اللون وان ارتسام الصور في الذهن يمثل ان يكون وراثيًا. وان رجال العلم اضعف في ذلك من غيرهم لاشتغالهم بالمجرّدات والكليّات وانه يمكن تقوية البصيرة بحيث لا تضر ببقيّة قوى العقل فتنفع صاحبها كما تنفعه الذاكرة القوية ولكنها ليست دليلاً على جودة العقل كما ان الذاكرة ليست دليلاً على جودته

ولاختلاف الناس في البصيرة ونريد بها ادراكهم لصور المرئيات نراهم يختلفون في حكمهم على ما يرونه بالباصرة لان انفسهم تدرك ما تصوّرهُ لها بصيرتهم ولذلك تختلف المدركات مع تساوي المرئيات وتساوي البواصر بل يختلف ادراك الانسان الواحد للشيء الواحد بحسب اختلاف احواله من الصحة والمرض والراحة والتعب والصحو والسكر. فالمريض يستاء من رؤية الاطعمة التي يحبها وهو صحيح والمتعب تقع عينهُ على اعماله فلا يستحسنها والسكران يرى الناس حوله فيظنهم ذبابًا او جمالاً

وقد تقوى البصيرة في بعض الناس حتّى تبلغ حدًّا فائقًا فترى لاعب الشطرنج يلعب على الرقعة وهو مغمض العينين بل لا يندر ان يمشي اثنان من لاعبي الشطرنج ويلعبان لعبًا كاملاً بدون ان تكون امامهما رقعة اذ تقوم صورة البصيرة مقام صورة الباصرة وكثيرون من الخطباء تُرسم صور خطبهم امام عيونهم وهم واقفون على دكة الخطابة فيتلونها تلاوةً كأنهم يرونها بعيونهم وكثيرون غيرهم ترتسم الاشكال الهندسيّة في اذهانهم فيرسمون فيها الخطوط والزوايا والحروف ويبرهنون كأنها مرسومة امامهم حقيقة

ومن اغرب ما يتعلّق بهذا الموضوع رؤية صور معلومة للمسموعات والوان مختلفة للكلمات فان من الناس مَن يرى الارقام العددية في صورة دائرة ومنهم من يراها في خط متعرج ومنهم من يراها في صور زوايا ومنهم من يرى الرقم ٩ في شكل شخص ضخم الجثة رهيب المنظر والرقم ٨ في صورة زوجته والرقم ٦ في صورة شخص وديع حرّ الشمائل والرقم ٣ في صورة فتًى غض الشباب. ومنهم من يرى للارقام الوانًا مختلفة. ومنهم من يرى صورًا لايام الاسبوع واسماء الشهور الى غير ذلك ممّا يطول شرحهُ

ولايضاح ذلك نقول ان الرؤية لا تتم بالعين الباصرة بل بنقطة في الدماغ تسمّى العقدة البصرية فهذه العقدة تنمو في بعض الناس اكثر مما تنمو في غيرهم وقد تتغلّب على غيرها من المراكز او تختل وظيفتها لسبب من الاسباب ولذلك تختلف رؤيتها للاشياء

باختلاف الاشخاص ولو كانت عيونهم متشابهة والاشباح واحدة

ويتلو حاسة البصر حاسة السمع والناس مختلفون فيها ايضاً على ضروب شتّى ولا سيّما اذا مرّنوها كما يمرنها الموسيقيون الّذين تقوى فيهم الى حد انهم يسمعون النغم مرةً واحدةً فيحفظونهُ والشعراء الّذين تتلو عليهم القصيدة مرةً واحدة فيحفظون اكثرها . والبعض لا يحفظون شيئاً الاّ اذا سمعوهُ سمعاً فتراهم يدرسون بصوت عالٍ لكي يؤثر صوتهم في آذانهم وترسخ الكلمات في اذهانهم . وتقوى حاسّة السمع غالباً بين العمي كما تقوى حاسّة البصر بين الصمّ والبعض يسمعون اصواتاً من الالوان كما يرى غيرهم الواناً من الاصوات

واللمس يُعَدُّ مع هاتين النوعين وقد يغني عن الاولى في من فقد البصر كما هو مشاهد في العميان

والشم والذوق لا نطيل الكلام فيهما لان علاقتهما بالقوى العقليّة قليلة وهما اضعف في الانسان منهما في غيرهِ من انواع الحيوان كأنّ الانسان اهمل تقويتهما بارتقائهِ عقلاً

وعلى هذه الحواس ولا سيّما الثلاث الاولى نعتمد في كل معلوماتنا الاّ ان بعض المطالب الخصوصيّة يُعتمد فيهِ على حاسّة دون أُخرى فالموسيقي مثلاً يُعتمد فيها على السمع والتصوير على البصر فلا يرجى من ضعيف السمع ان يتقن الموسيقى ولا من ضعيف البصر ان يتقن التصوير . واما المطالب العموميّة فيُعتَمد فيها على الحواس كلها وان تباينت تباين الاشخاص فالذي يتعلم لغة جديدة يضطر ان يستعمل نظرهُ وسمعهُ ولكن من الناس من يستعمل نظرهُ لهذه الغاية اكثر من سمعهِ فيعلّق الالفاظ والمعاني بصور اشباح منظورة ومنهم من يستعمل سمعهُ اكثر من نظرهِ فيعلّق تلك الالفاظ والمعاني باصوات مسموعة ومنهم من تعلق المعاني في ذهنهِ اذا رأى الكلمات بعينيهِ اكثر مما اذا سمع صوتها باذنيهِ ومنهم من تكون المعاني اعلق في ذهنهِ اذا سمع الالفاظ مما اذا قرأها . وقد ظنّ البعض انهُ اذا أُريد النجاح في التعليم وجب ان يقوّى الميل الفطري في الولد فاذا كان بصريًّا اي يدرك بعينهِ اكثر مما يدرك باذنهِ وجب ان يُعتمد في تعليمهِ على ما يراهُ بعينهِ واذا كان سمعيًّا اي يدرك باذنهِ اكثر مما يدرك بعينهِ وجب ان يُعتمد على ما يسمعهُ باذنهِ لا على ما يراهُ بعينهِ والاّ ذهبت وسائل التعليم سدًى . فالبصري لا يفهم ما يريد درسهُ الاّ اذا قرأهُ بنفسهِ والسمعي لا يفهمهُ الاّ اذا قرأهُ لهُ آخر او قرأهُ هو بصوت عالٍ حتّى يسمع صوتهُ واما اذا عُكس الامر فقُرئت الدروس للبصري وأُجبر السمعي على درسها بدون ان يرفع صوتهُ ضاع الوقت سدًى وذهبت الفائدة

قالوا ولا يجوز الاَّ مجاراة الطبيعة لتقوية ما قوتهُ واضعاف ما اضعفتهُ وعندنا ان ذلك خطأ الاَّ اذا قصَد المرء ان يقتصر على علم او صناعة واحدة كالموسيقى والتصوير مما يقتضي قوةً واحدةً من هاتين القوتين واما بقيَّة مطالب الحياة فتستدعي استعمال القوتين ولا تغني واحدة عن أُخرى

وقد استنبطوا طرقًا مختلفة ليعرفوا ما اذا كان الانسان بصريًا او سمعيًا من ذلك ان تتلى على سمعهِ عدة كلمات ويُطلَب منهُ ان يكتب او يتلو ما علق بذهنهِ منها ثم يعطى قرطاسًا فيهِ كلمات مشابهة لتلك ويطلب منهُ ان يقرأها بنفسهِ بدون ان يرفع صوتهُ ثم يتلو او يكتب ما علق بذهنهِ منها فاذا علق بذهنهِ في السمع اكثر مما علق في النظر فهو سمعي والاَّ فبصري ولا بدَّ من تكرار ذلك مرارًا والاحتراس من الخطإ . ومنها ان يعطى كتابًا ليقرأ فيهِ فقرةً وتتلى على سمعهِ فقرة اخرى في الوقت نفسهِ ويُطلَب منهُ ان يكتب او يكرر ما علق بذهنهِ مما سمعهُ ومما قرأهُ فان السمعي يعلق بذهنهِ ما سمعهُ اكثر مما يعلق بهِ ما قرأهُ والضد بالضد . ومنها ان ينسخ فقرةً وانت تتلو عليهِ فقرةً اخرى فاذا كان سمعيًا فهم ما تتلو عليهِ ولم يفهم شيئًا مما نسخهُ واذا كان بصريًا فهم ما نسخهُ ولم يفهم شيئًا مما تتلوهُ عليهِ ولكنَّ حركة اليد تساعد البصري فاذا تساوت قوة السمع وقوة الابصار غلب البصر على السمع لاشتراك اليد معهُ . وقد رأينا فعل اشتراك اليد في شخص كان اذا طُلب منهُ تهجئة كلمة لا يستطيع تهجئتها ما لم يكتبها بيدهِ فكان يكتبها صحيحًا ثم يهجيها كما يراها

وقد امتحنا هذه الاساليب في جماعة فرأينا بعضهم سمعيًا وبعضهم بصريًا وبعضهم بين بين ورأينا ان السمعي منهم يحسن اللفظ اكثر من الهجاء ولاسيما في اللغة الانكليزية التي لا ينطبق لفظها على هجائها والبصري يحسن الهجاء اكثر من اللفظ فلا يخطئ في كتابة الكلمات الغريبة الهجاء ولو اخطأ في لفظها او معناها والسمعي البصري جامع بين الامرين والذي ليس سمعيًا ولا بصريًا ضعيف فيهما معًا . ويحسن بالوالدين والمعلمين ان يختبروا قوى الاولاد ليتعوا ما فيهم من الاميال الخلقيَّة او يضعفوها حسب مقتضى الحال

ومما يجب الحذر منهُ طموح هذه القوى وتخطيها حدودها حتى تصير حاكمة على العقل لا محكومةً منهُ فانها تصير حينئذٍ سيدًا مستبدًّا بعد ان كانت خادمًا امينًا فتجعل صاحبها يسمع الناس يذكرون اسمهُ بالمدح او بالذم وهم انما يذكرون شخصًا آخر ويرى في الاعمال الطبيعيَّة عجائب خارقة العادة وينقاد عقلهُ بجبال الاوهام في ظلمات الظنون والمخاوف